آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الخامسة ـ العددان العشرون والحادي والعشرون ـ ذو الحجة ١٤١٨ هـ ـ ابريل (نيسان) ١٩٩٨م

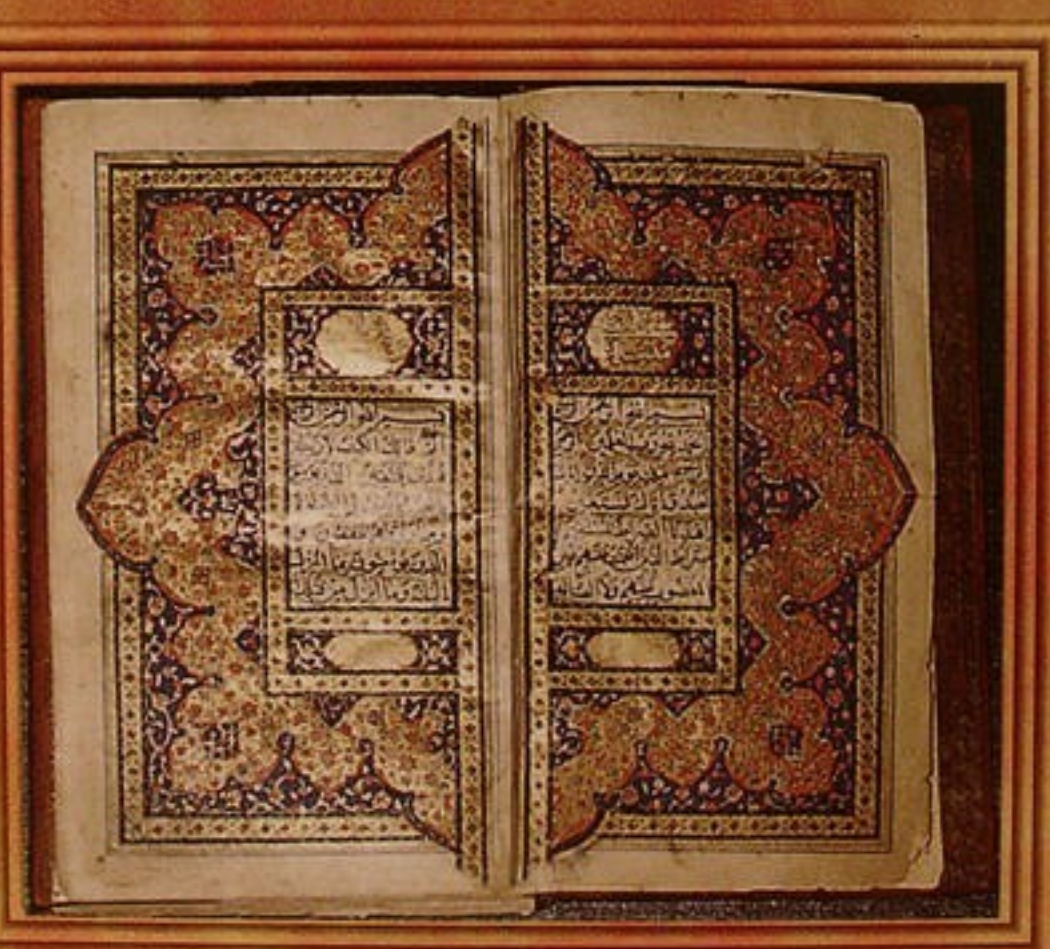

أدب الترهيب في القرآن الكريم

بقلم الشيخ الدكتور
أحمد محمد علم الدين
كلية الإمام الأوزاعي
للدراسات الإسلامية

يصف الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم في كثير من آيات القرآن المجيد بأنه بشيرٌ ونذير، وأنه بعثه كذلك. وإذا كانت البشارة بشارة بالإسلام وبالأجر، من جرّاء العمل الصالح الذي يقوم به المؤمن، فإن الإنذار إنما هو إنذارٌ مُوَجَّهٌ إلى أولئك الذين يأبَونَ الانصياع لدين الحقّ والهدى، ويرتكبون الإثم والعدوان ومعصية الرسول، إنه إنذارٌ بسوء العاقبة إن استمرّوا على كفرهم وطغيانهم.

وهكذا فإن الإسلام دين الله على سعته، يمكن تركيزه في هاتين الكلمتين الموحيتين الشديدتي العمق والدلالة: التبشير والإنذار. انطلاقًا من هذا الفهم للموضوع، اقتصرنا على جانب الترهيب والإنذار محاولين دراسة الناحية الإسلامية من الأمر كله بعنوان: «أدب الترهيب في القرآن الكريم».

في البعد اللغوي

يذكر الراغب الأصفهاني (– ٥٠٠هـ) في مفرداته ما يلي: «الرَهبة والرّهب: مخافة مع تحرّز واضطراب. قال: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً...﴾(١). وقال: «جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ»(٢). وقُرِئَ: من الرُهب؛ أي الفزع. قال مقاتل: «خرجتُ ألتمس تفسير الرَّهْب، فلقيتُ أعرابية وأنا آكُلُ، فقالت: يا عبدَ اللهِ، تَصَدَّقْ عَلَيَّ! فَمَلأْتُ كَفِّي لأَدْفَعَ إليها، فقالت: ها هنا في رَهْبي أي كُمّي! والأوّل أصحُّ.

قال: ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾(٣)، وقال: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(٤)، وقوله: ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾(٥)، أي حَمَلُوهُمْ على أن يرهبوا، ﴿وإيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(٦)، أي خافون. والتَّرَهُبُ: التَّعَبُّدِ، وهو استعمالُ الرَّهبةِ. والإرهابُ: فزعُ الإبلِ، وإنَّما هو من أَرْهَبْتُ. ومنه الرَّهْبُ من الإبل. وقالت العرب: «رَهَبُوتٌ خَيْرٌ مِنْ رَحَمُوتٍ»(٧).

ولا يتوسَع الزَمخشري توسَع الرَاغب في دراسة المادة، بل يقول بإيجاز: «رَهِبَ وَرَهِبْتُهُ، وفي قلبي منهُ رهبةٌ، ورَهَب ورَهَبُوتٌ، وهو رَجُلٌ مَرْهُوبٌ عَدُوُّهُ منهُ مَرْعُوبٌ، وَأَرْهَبْتُهُ

ورهَبْتُه واسْتَرْهَبْتُهُ أزعجتُ نفسه بالإخافة. وتقول: «يَقْشَعِرُّ الإهَابُ إذا وَقَعَ مِنْهُ الإرْهَابْ»(٨).

ويتكرّر شيء من هذا في معجمات اللغة(٩). وعلى هذا فإنّ معنى «الرَّهْبُ والرَّهْبَةُ»: الفزع. بيدَ أنّ مادة (رهب) ليست هي المادة الوحيدة في القرآن التي تفيد معنى الفزع، بل هناك مواد أخرى، أهمّها كُلٌّ مِنْ: خاف(١٠)، خشيَ(١١)، اتّقَى(١٢). وسنراعي هذا في مجال الدّراسة.

ويحاول كُلٌّ من الأزهري في «التهذيب»، والفيّومي في «المصباح المنير» أن يربطا بين مادة (رَهَبَ) وأصل معنى الرّهبانيّة أو الرّهبنة المسيحيّة، حيث يضيف الأزهري عبارة تجعل الأمر كلّه محل شكّ، وذلك عندما يقول: «والتَّرَهُبُ: التَّعَبُّدُ في صومعته»(١٣). إذًا ما صلة التعبّد لغويًا بالخوف من الله؟

في البعد القرآني

يرد جِذْر التّرهيب في القرآن الكريم في المواطن التالية:

١ - قال الله تعالى: ﴿يا بَنِي إسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وإيّايَ فَارْهَبُونِ﴾(١٤).

يتضح البعد القرآني في هذه الآية الكريمة من المعنى التّرهيبي المتمثل في شرح المفسّرين، قال أبو جعفر: ياوُلْد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن، وكان يعقوب يدعى إسرائيل، بمعنى عبدالله وصفوته من خلقه، وإيل هو الله بالعبرانية، وإسرا هو العبد. وإنّما خاطب الله جلّ ثناؤه أحبار اليهود من بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فنسبهم جلّ ذكره إلى يعقوب، كما نسب ذريّة آدم إلى آدم فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(١٥). وما أشبه ذلك: وإنما خصّهم بالخطاب في هذه الآية وما بعدها من الآيات التي ذكر فيها نعمه وما أنزل فيهم وفي غيرهم في أوّل سورة البقرة، أنّ الذي احتجّ به من الحجج، والآيات التي فيها أنباء أسلافهم وأخبار أوائلهم وقصص الأمور التي هم بعلمها مخصوصون دون غيرهم من سائر الأمم، ليس عند غيرهم من العلم بصحته وحقيقته مثل الذي لهم من العلم به إلاّ لمن اقتبس على ذلك منهم، فعرّفهم باطلاع محمد صلى الله عليه وسلم على علمها مع بعد قومه وعشيرته من معرفتها، وقلة مزاولة محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الكتب التي فيها أنباء ذلك، لأنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى علم ذلك إلاّ بوحي من الله وتنزيل منه ذلك إليه؛ لأنهم من علم صحّة ذلك بمحل ليس به من الأمم غيرهم، فلذلك خاطبهم جلّ ثناؤه بقوله: ﴿يَا بَني إسرائيل﴾(١٦).

قال ابن عباس وجمهورُ العلماء: «الخطاب لجميع بني إسرائيل في مدّة النّبيّ صلى الله عليه وسلّم»(١٧). وقال الإمام: «اختصّ بني إسرائيل بالخطاب اهتمامًا بهم؛ لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب السماوية، والمؤمنة بالأنبياء المعروفين، ولأنهم كانوا أشدّ النّاس على المؤمنين، ولأن في دخولهم في الإسلام من الحجّة على النّصارى وغيرهم أقوى ممّا في دخول النّصارى من الحجّة عليهم(١٨).

لهذا يقول الله تعالى آمرًا بني إسرائيل بالدّخول في الإسلام؛ ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسّلام؛ ومهيّجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبيّ الله يعقوب عليه السّلام. وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم افعل كذا؛ يا ابن الشجاع بارز الأبطال؛ يا ابن العالم اطلب العلم، ونحو ذلك. والابن من البناء لأنه مبنى أبيه، ولذلك ينسب المصنوع إلى صانعه فيقال: أبو الحرب، وبنت الفكر، وقرىء إسرائل بحذف الياء، وإسرال بحذفهما، وإسرائيل بقلب الهمزة ياء(١٩). ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾(٢٠). فإسرائيل هو يعقوب بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي... عن عبدالله بن عبّاس قال: حضرت عصابة من اليهود نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال لهم: (هل تعلمون أنّ إسرائيل يعقوب؟ قالوا: اللهم نعم، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «اللهم اشهد»)(٢١). وهو غير منصرف لوجود العلمية والعجمة(٢٢).

ومعنى قوله تعالى: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾: أي اشكروا نعمتي، وإنّما عبّر عنه بالذّكر: لأن من ذكر النّعمة فقد شكرها، ومن جحدها فقد كفرها، وقيل: الذّكر يكون بالقلب ويكون باللسان(٢٣). والذّكر في كلام العرب على أنحاء، وهذا منها ذكر القلب الذي هو ضد النّسيان(٢٤). وورد الذكر في القرآن الكريم على عشرين وجهًا(٢٥).

أمّا قوله تعالى في ذكر النعمة التي أسدلها عليهم، فقد قال أبو جعفر: «ونعمته التي أنعم بها على بني إسرائيل جلّ ذكره، اصطفاؤه منهم الرّسل، وإنزاله عليهم الكتب، واستنقاذه إيّاهم ممّا كانوا فيه من البلاء والضرّاء، من فرعون وقومه، إلى التمكين لهم في الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعام المنّ والسلوى، فأمر جلّ ثناؤه أعقابهم أن يكون ما سلف منه إلى آبائهم على ذكر، وأن لا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم، فيحل بهم من النقم ما أحلّ بمن نسيَ نعمه عنده منهم، وكفرها وجحد صنائعه عنده».

وقال ابن زيد: «نعمه عامّة ولا نعمة أفضل من الإسلام والنّعم بعدُ تبع لها، وقرأ قول الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا، قُلْ: لاَ تَمُنُّوا

عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللّـهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمان إِنْ كُنْتُمْ صَادقين﴾(٢٦). وتذكير الله الذين ذكرهم، جلَ ثناؤه، بهذه الآية، من نعمه على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، نظير تذكير موسى، صلوات الله عليه، أسلافهم على عهده الذي أخبر الله عنه، أنَه قال لهم ذلك. قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا، وَآتَاكُم مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِين﴾(٢٧) (٢٨). والنَعمة هنا اسم جنس، فهي مفردة بمعنى الجمع(٢٩)، بمعنى أن لا يخلّوا بشكرها، ويطيعوا مانحها(٣٠)، وتقييد النعمة بهم؛ لأن الإنسان غيور حسود بالطَبع، فإذا نظر إلى ما أَنعم الله على غيره، حملته الغيرة والحسد على الكفران والسخط، وإنْ نظر إلى ما أَنعم الله به عليه، حمله حبَ النَعمة على الرضى والشكر(٣١). وهذه النعمة(٣٢) التي أطلقها في التذكير لِعِظَمِ شأنها، هي نعمة جعل النَبوّة فيهم زمنا طويلاً (أو أعم)، ولذلك كانوا يسمَون شعب الله كما في كتبهم، وفي القرآن الكريم. إنَ الله اصطفاهم وفضَلهم، ولا شكَ أن هذه المنقبة نعمة عظيمة من الله منحهم إيَاها بفضله ورحمته، فكانوا بها مفضَلين على العالمين من الأمم والشعوب، وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر النَاس لله شُكرًا، وأشهدهم لنعمته ذكرًا، وذلك بأن يؤمنوا بكلّ نبيَ يرسله لهدايتهم، ولكنهم جعلوا النعمة حجَة الإعراض عن الإيمان، وسبب إيذاء النبيّ عليه السلام: لأنهم زعموا أنّ فضل الله تعالى محصورٌ فيهم، وأنّه لا يبعث نبيًا إلاَ منهم: ولذلك بدأ الله تعالى خطابهم بالتذكير بنعمته، وقفَى عليه بالأمر بالوفاء بعهده، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، عهد الله تعالى إليهم يعرف من الكتاب الذي نزّله إليهم، فقد عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأن يؤمنوا برسله حتَى قامت الأدلَة على صدقهم، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه، وعهِدَ إليهم أن يرسل إليهم نبيًا من بني إخوتهم: أي بني إسماعيل يقيم شعبًا جديدًا. هذا هو العهد الخاص المنصوص.

ويدخل في عموم العهد عهد الله الأكبر، الذي أخذه على جميع البشر بمقتضى الفطرة، وهو التدبر والتروَي، ووزن كلَ شيء بميزان العقل والنظر الصحيح، لا بميزان الهوى والغرور، ولو التفت بنو إسرائيل إلى هذا العهد الإلهي العام، أو إلى تلك العُهُد الخاصة المنصوصة في كتابهم، لآمنوا بالنَبيَ صلَى الله عليه وسلم، واتَبعوا النور الذي أنزل معه، وكانوا من المفلحين. ولا حاجة إلى تخصيص العهد بالإيمان بالنَبيَ صلى الله عليه وسلَم، كما فعل مفسَرنا (الجلال)، فإنَ الإيمان داخل في العهد العام، وهو إفراد العهد الخاص، فلا دليل على قصر عموم العهد المضاف عليه.

هذا هو عهد الله، وأمّا عهدهم، فهو التمكين في الأرض المقدسة، والنّصر على الأمم الكافرة، والرّفعة في الدّنيا، وخفض العيش فيها، هذا هو الشائع في التوراة التي بين أيديهم، ولا شكَ أن الله تعالى قد وعدهم أيضًا بسعادة الآخرة، ولكن لا دليل على هذا في التوراة إلاّ الإشارات، ولذلك ظنَّ بعض الباحثين أنَ اليهود لا يؤمنون بالبعث، ومع هذا يقول (الجلال) كغيره: «إنّ هذا العهد هو دخول الجنّة ويقتصر عليه»(٣٣).

اختلف أهل المعرفة في معنى العهد(٣٤) الذي وصفه الله لهؤلاء الفاسقين ﴿الَّذِيْنَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ، أُولئِكَ هُمُ الخَاسِرُون﴾(٣٥). فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه، وأَمره إيّاهم بما أمرهم به من طاعتِهِ، ونهيه إيّاهم عمّا نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رسوله صلّى الله عليه وسلم، ونقضهم ذلك وتركهم العمل به.

وقال آخرون: إنّما نزلت هذه الآيات في كُفّار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وإيّاهم عَنَى الله جلّ ذكره بقوله: ﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُم أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُون﴾(٣٦)، وبقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِين﴾(٣٧)، فكلّ ما في هذه الآيات، معذلٌ لهم وتوبيخ إلى انقضاء قصصهم.

قالوا: فعهد الله الذي نَقَضُوهُ بعد ميثاقه، هو ما أخذه الله عليهم في التوراة، من العمل بما فيها، واتّباع محمد صلى الله عليه وسلّم إذا بعث، والتّصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته، وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس، بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق، ليبيّننّه للنّاس ولا يكتمونه، فأخبر جلّ ثناؤه أنّهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنًا قليلاً.

وقال بعضهم: إنّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل الشرك والكفر والنّفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلّة الدّالّة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه، ما احتجّ به لرسله، من المعجزات التي لا يقدر أحدٌ من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها الشاهدة لهم على صدقهم.

قالوا ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبيّنت لهم صحته بالأدلّة، وتكذيبهم الرّسل والكتب مع علمهم أنّ ما أتوا به حق.

وقال آخرون: العهد الذي ذكره الله جلّ ذكره هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم، الذي وصفه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ...﴾(٣٨)، ونقضهم ذلك، تركهم الوفاء به.

وأَوْلَى الأقوال عندي بالصواب في ذلك، قول من قال: إنّ هذه الآيات نزلت في كفّار أحبار اليهود، الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وما قرب منها من بقايا بني إسرائيل، ومن كان على شركه من أهل النفاق... وبما وافق منها صفة أحبار اليهود جميع من كان لهم نظيرا في كفرهم، وذلك أنّ الله، جلّ ثناؤه، يعمّ أحيانًا جميعهم بالصفة لتقديمه ذكر جميعهم في أَوّل الآيات التي ذكرت قصصهم، ويخصّ أحيانًا بالصفة بعضهم لتفصيله في أَوّل الآيات بين فريقهم، أعني فريق المنافقين من عبدة الأَوثان وأهل الشرك بالله، وفريق كفّار أحبار اليهود، فالذين ينقضون عهد الله هم التاركون ما عهد الله إليهم من الإقرار بمحمّد صلى الله عليه وسلّم وبما جاء به، وتبيين نبوّته للناس، الكاتمون بيان ذلك بعد علمهم به، وبما قد أخذ الله عليهم في ذلك، كما قال الله جلّ ذكره: ﴿وإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ فنبذوه وراء ظهورهم، ونبذهم ذلك وراء ظهورهم هو نقضهم العهد الذي عُهِدَ إليهم في التوراة الذي وصفناه، وتركهم العمل به، وإنّما قلت: إنّه عَنَى بهذه الآيات من قلت إنه عناهم بها؛ لأنّ الآيات من ابتداء الآيات الخمس والست من سورة البقرة فيهم نزلت إلى تمام قصصهم، وفي الآية التي بعد الخبر عن خلق آدم وأبنائه في قوله: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾، وخطابه إيّاهم، جلّ ذكره بالوفاء في ذلك خاصةً دون سائر البشر، ما يدلّ على أنّ قوله: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ مقصودٌ به كفّارهم ومنافقوهم ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم، غير أنّ الخطاب، وإن كان لمن وصفت من الفريقين، داخل في أحكامهم، وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذمّ والتوبيخ ولمن كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي، فمعنى الآية إذًا: وما يضلّ به إلاّ التّاركون طاعة الله الخارجون عن اتباع أمره ونهيه النّاكثون عهود الله التي عهدها إليهم في الكتب التي أنزلها إلى رسله، وعلى ألسن أنبيائه باتباع أمر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وما جاء به، وطاعة الله فيما افترض عليهم في التوراة من تبيين أمره للنّاس، وإخبارهم إيّاهم أنّهم يجدونه مكتوبًا عندهم أنه رسول من عند الله مفترضة طاعته، وترك كتمان ذلك لهم ونكثهم ذلك، ونقضهم إيّاه هو مخالفتهم الله في عهده إليهم فيما وصفت أنه عهد إليهم بعد إعطائهم ربّهم الميثاق بالوفاء بذلك، كما وصفهم به جلّ ذكره بقوله: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى

ويقولون: سيغفر لنا، وإن يأتهم عرضٌ مثله يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق﴾، وأمّا قوله: ﴿من بعد ميثاقه﴾، فإنّه يعني: من بعد توثيق الله منه بأخذ عهوده بالوفاء له بما عهد إليه في ذلك، غير أن التوثيق مصدر من قولك تَوَثَّقْتُ من فلان تَوَثّقًا، والميثاق اسمٌ منه، والهاء في الميثاق عائدة على اسم الله، وقد يدخل في حكم هذه الآية كل من كان بالصفة التي وصف الله بها هؤلاء الفاسقين من المنافقين والكفّار في نقض العهد وقطع الرحم والإفساد في الأرض(٣٩).

أما الثعالبي فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم﴾ أمرٌ وجوابه، وهذا العهد في قول جمهور العلماء عام في جميع أوامره سبحانه ونواهيه ووصاياه لهم، فيدخل في ذلك ذكر محمد صلى الله عليه وسلم الذي في التوراة، (والرهبة) يتضمن الأمر بها معنى التهديد.

وأسند الحكيم في نوادر الأصول له عن النبيَ صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قال ربكم سبحانه: لا أجمع على عبدي خوفين؛ ولا أجمع له أمنين؛ فمن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، ومن أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة)، انتهى من التذكرة للقرطبي... ورواه أيضًا الترمذي الحكيم في كتابه «ختم الأولياء»، قال صاحب الكلم الفارقية والحكم الحقيقية: «بقدر ما يدخل القلب من التعظيم والحرمة تنبعث الجوارح في الطاعة والخدمة». انتهى(٤٠).

بينما يقول البيضاوي في تفسيره المسمَى أنوار التنزيل وأسرار التأويل في قوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهدي﴾ بالإيمان والطاعة ﴿أوفِ بعهدكم﴾ بحسن الإثابة، والعهد يضاف إلى المعاهِد والمعاهَد، ولعلَ الأول مضافٌ إلى الفاعل، والثاني إلى المفعول؛ فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدّلائل وإنزال الكتب، ووعد لهم بالثواب على حسناتهم، وللوفاء بهما غرضٌ عريض، فأول مراتب الوفاء منّا، هو الإتيان بكلمتي الشهادة، ومن الله تعالى، حقن الدم وحفظ المال، وآخرها منّا، الاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلاً عن غيره، ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم. وما رُوِيَ عن ابن عباس رضيَ الله عنهما ﴿أوفوا بعهدي﴾ في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ﴿أُوفِ بعهدكم﴾ في رفع الآصار والأغلال.

وعن غيره: أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر، أوف بالمغفرة والثواب، أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم، أوف بالكرامة والنعيم المقيم، فبالنظر إلى الوسائط، وقيل: كلاهما مضاف إلى المفعول. والمعنى: أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان

والتزام الطاعة، أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة(٤١).

ولما كان من موانع الوفاء بالعهد الذي فشا تركه في شعب بني إسرائيل، خوف بعضهم من بعض، لما بين الرؤساء والمرؤوسين من المنافع المشتركة، عقب الأمر بالوفاء بقوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾، أي: إن كنتم تخافون فوت بعض المنافع، ونزل بعض المضار بكم، إذا خالفتم الجماهير واتبعتم الحق، فالأولى أن لا تخافوا ولا ترهبوا إلاّ من بيده أزمة المنافع كلها، وهو الله الذي أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى أو النعم كلها، وهو وحده القادر على سلبها، وعلى العقوبة على ترك الشكر عليها، فارهبوه وحده لا ترهبوا سواه(٤٢).

وعن أبي العالية، وأيضًا عن السّدّي قالا في قوله تعالى: ﴿وإيَاي فارهبون﴾ أي فاخشون(٤٣).

ومما يلفت النظر، أن الفيروز آبادي قد وضّح بصورة جليّة في بصائره عن الفرق بين معنى الخشية والخوف، والرهبة والوجل، والهيبة، في القرآن الكريم فقال:

«الخشية هي خوف يشوبه تعظيم. وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخْشى منه، ولذلك خُصَّ العلماء بها في قوله تعالى: ﴿إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاء﴾(٤٤). وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَذينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾(٤٥)، أي ليستشعروا خوفًا عن معرفة. وقوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾(٤٦)، أي لا تقتلوهم معتقدين لمخافة أن يلحقهم إملاق. وقوله: ﴿لِمَنْ خَشِيَ العَنَتَ مِنْكُمْ﴾(٤٧)، أي لمن خاف خوفًا اقتضاه معرفته بذلك عن نفسه. وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَخْشَوا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾(٤٨).

ومدح الله تعالى أهلها؛ أي أهل الخشية في قوله: ﴿إنَّ الذينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. والذينَ هُمْ بآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُون. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سابِقُون»(٤٩).

أخرج الإمام أحمد في مسنده، والترمذي في جامعه عن عائشة رضيَ اللهُ عنها قالت قلت: يا رسولَ الله، الذين يؤتون ما آتَوْا وقلوبهم وجلة، أهو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر؟ قال: لا يا ابنة الصّدّيق، ولكنه الرّجل يصلّي ويصوم ويتصدّق ويخاف ألاّ يُقْبَلَ منه.

قال الحسن رحمه الله: «عَمِلُوا للهِ بالطّاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُرَدَّ عليهم». إنّ المؤمن جمع إيمانًا وخشية، والمنافق جمع إساءَةً وأمنًا. والخشية والخوف والوجَل والرّهبة ألفاظٌ متقاربة غير مترادفة.

فالخوف: توقُّع العقوبة على مجاري الأنفاس، قاله جُنيد(٥٠). وقيل: اضطراب القلب وحركته من تذكّره المخوف. وقيل:

الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

والخشية أخصّ من الخوف؛ فإن الخشية للعلماءِ بالله تعالى كما تقدّم. فهي خوفٌ مقرون بمعرفة. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: (إنّي أتقاكم لله وأشدُّكم له خشيةً)، فالخوف حركة، والخشية انجماع (اعتزال الناس كأنه يجمع نفسه عنهم)، وانقباضٌ وسكون، فإنَ الذي يرى العدوّ والسَيل ونحو ذلك له حالتان: إحداهما حركة الهرب منه، وهي حالة الخوف، والثانية سكونه وقراره في مكانٍ لا يصل إليه، وهي الخَشْية، ومنه الخَشُّ: الشيء الأخشن والمضاعف والمعتل أخوان: كتقصَّى البازي وتقضَّض.

وأمّا الرّهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضدّ الرّغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه. وبين الرَّهب والهرب تناسب في اللفظ والمعنى يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عَقْد تقاليب الكلمة على معنى جامع.

وأمّا الوَجَلُ فرجفانُ القلب وانصداعُه لذكر مَنْ يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته.

وأما الهيبةُ فخوفٌ مقارنٌ للتعظيم والإجلال. وأكثر ما يكون مع المحبة والإجلال.

فالخوف لعامّة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبّين، والوَجَلُ للمقرَّبين. وعلى قدر العلم والمعرفة تكون الخشية، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: (إنّي لأعلمكم بالله وأشدّكم له خشية)، وقال: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً، ولَمَا تلذذْتمْ بالنساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصّعدات تجأرون إلى الله تعالى). فصاحب الخوف يلتجىء إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما كمثل مَنْ لا علم له بالطِّبّ ومثل الطبيب الحاذق. فالأول يلتجىء إلى الحِمْية والهرب، والطبيب يلتجىء إلى معرفته بالأدوية والأدواء. وكلّ واحد إذا خفته هربتَ منه، إلاّ الله، فإنك إذا خفته هربت إليه. فالخائف هاربٌ من ربّه إلى ربّه(٥١).

ولا يكاد اللغوي يفرّق بين الخوف والخشية، إلاّ أنّ الخشية أعلى من الخوف، ولذلك خصّت الخشية بالله تعالى في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾(٥٢).

وقد يفرّق بينهما بأنّ الخشية من عظم المختشي، وإنْ كان الخاشي قويًا، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا(٥٣).

وقال أبو جعفر: وتأويل قوله: ﴿وإيّايَ فارهبون﴾، وإيّاي فاخشوا، واتّقوا أيّها المضيّعون عهدي من بني إسرائيل والمكذّبون رسولي الذي أخذت ميثاقكم فيما أنزلت من الكتب على أنبيائي أن تؤمنوا به وتتبعوه أن

أحلّ بكم من عقوبتي إنْ لم تنيبوا وتتوبوا إليَّ باتّباعه والإقرار بما أنزلت إليه ما أحللت بمن خالف أمري وكذّب رسلي من أسلافكم(٥٤).

وقال ابن عباس: إن نزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي عرفتم، من المسخ وغيره.

وهذا انتقالٌ من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرّهبة لعلّهم يرجعون إلى الحقّ واتّباع الرّسول صلى الله عليه وسلَم، والاتعاظ بالقرآن وزواجره، وامتثال أوامره، وتصديق أخباره، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم(٥٥)، أو بمعنى فيما تأتون وتذرون، وخصوصًا في نقض العهد، وهو آكد في إفادة التخصيص من إيّاك نعبد لما فيه. مع التقديم من تكرير المفعول، والفاء الفصيحة الدّالة على تضمن الكلام معنى الشرط، كأنّه قيل: إن كنتم راهبين شيئًا فارهبون، والرّهبة خوفٌ مع تحرّز، والآية متضمنة للوعد والوعيد، دالّة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأنّ المؤمن ينبغي أنْ لا يخاف أحدًا إلاّ الله تعالى(٥٦).

٢ – قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُم وجاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾(٥٧).

القول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾، الضمير عائد إلى السّحرة بقولهم: «يَامُوسى». وموسى عليه السلام هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام، لا خلاف في نسبه، وهو اسم سرياني سمّي به: لأنّه ألقي بين شجرٍ وماء، والماء بالقبطية (مو)، والشجر (شا) معرب، فقيل: موسى.

عاش مائة وعشرين سنة، لبث في قوم فرعون ثلاثين سنة، ثم خرج إلى مدين عشر سنين، ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين سنة، ثمّ بقي بعد الغرق خمسين سنة، وقبر موسى عليه السلام في سيحان قرية بالبلقاء، كذا في القاموس(٥٨).

وقال تعالى: ﴿قَالُوا: يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ، وإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ المُلْقِينَ﴾. قال السّحرة لموسى عليه السلام: إمّا أن تلقي ما عندك أوّلاً، وإمّا أن نكون نحن الملقين لما عندنا من دونك. أمّا تخييرهم إيّاه فلثقتهم بأنفسهم، واعتدادهم بسحرهم، أو إرهابًا له، وإظهاراً لعدم المبالاة به، مع العلم بأنّ المتأخّر يكون أبصر بما تقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى شوط خصمه.

وما قيل من أنّ علّة التخيير مراعاة لأدب لا وجه له ألبتّة، بل مقامهم بحضرة ملكهم الذي يدّعي الألوهية والرّبوبية فيهم، وما طلبوه منه وما وعدهم إيّاه، كلّه يقتضي أن يحتقروا خصمه، لا أن يتأدّبوا معه كما يتأدب أهل الصّناعة الواحدة بعضهم مع بعض، إذا تلاقوا

للمباراة، وهو ما وجّه الزّمخشري به التعليل.

وما قال البيضاوي وغيره من أنّ علّته إظهار التّجلّد، فضعيف؛ إذْ لم يَرَوْا من موسى شيئا بأعينهم يقتضيه، وإنّما سمعوا أنّه ألقى عصاه بحضرة فرعون، فصارت ثعبانا، فاستعدّوا لمقابلته بعصيّ وحبال كثيرة، يخيّل إليه وإلى كلّ ناظر أنّها ثعابين تسعى، فيبطلون سحره بسحرٍ مثله كما قال ملكهم: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾(٥٩).

وذهب الزّمخشري ومن تبعه إلى أنّ هذا التعبير عن إلقائهم يدل على رغبتهم في البدء بما ينبىء عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل «نَحْنُ»، وتوكيد الضمير المستتر به. وفي سورة طه: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾(٦٠)، وفيه من التوكيد ما يدلّ على الرّغبة في الأوّليّة التي صرّحوا بذكرها هنا. فلا فرق بين التعبيرين في المعنى، فلا بأس حينئذٍ بجعل الاختلاف اللفظي في الحكاية عنهم لمراعاة الفواصل، وقد اختلف فيه على أقوال، ثالثها هو الصحيح المعتمد، أنه جائز وواقع فيما لا يخلّ بأداء المعنى، ولا ينافي البلاغة العليا، فكيف إذا كان مزيد تفنن قد يصل إلى حدّ الإعجاز فيها، وذلك أن تأدية دقائق المعاني مكررة بألفاظ مختلفة في منتهى العسر، وكثيرًا ما يكون متعذرًا، فلو لم يؤكد الضمير المتّصل ههنا بالضمير المنفصل «نَحْنُ»، لما أفاد معنى الرّغبة في أوّلية الإلقاء المصرّح به في سورة طه، وبذلك علم أن مراعاة الفاصلتين في الموضعين هو الذي وحّد بينهما بجعل كلّ منهما دالاً على رغبة السّحرة في التقدّم والأوّليّة، فأيّ خطيب أو كاتب يقدر على إفادة هذا المعنى بأسلوبين مختلفين في اللفظ من غير تصريح به، وأيّ مترجم تركي أو إفرنجي يفقه هذا ويؤدّيه في ترجمته للقرآن؟(٦١).

في هذه الآية لطيفة هي أنّ السّحرة راعوا مع موسى عليه السّلام حسن الأدب، حيث قدّموه على أنفسهم في الإلقاء، لا جرم أنّ الله عزّ وجلّ عوّضهم حيث تأدّبوا مع نبيّه موسى عليه السلام أنْ مَنَّ عليهم بالإيمان والهداية، ولمّا راعوا الأدب أوّلاً، وأظهروا ما يدلّ على رغبتهم في ذلك، قال لهم موسى: ألقوا أنتم، فقدّمهم على نفسه في الإلقاء. فإن قلت: كيف جاز لموسى أن يأمر بالإلقاء وقد علم أنّه سحر، وفِعْل السّحر غير جائز: قلت: ذكر العلماء رحمهم الله تعالى فيه أجوبة:

الأول : أنّ معناه، إن كنتم محقّين في فعلكم فألقوا وإلاّ فلا تلقوا.

الثاني : إنما أمرهم بالإلقاء لتظهر معجزته؛ لأنهم إذا لم يلقوا حبالهم وعصيّهم لم تظهر معجزة موسى في عصاه.

الثالث : أنّ موسى علم أنهم لا بدّ أن يلقوا تلك الحبال والعصيّ، وإنّما وقع التخيير في

آفاق الثقافة و التراث
مجلة فصلية تعنى بالتراث الحضاري
تصدر عن مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث

Afāq al -Ṭaqāfa Wa al -Turāṯ
A Quarterly Journal of Cultural Heritage
Jumi`a al -Majid Center for Culture and Heritage

قسيمة اشتراك

Subscription Order Form

☐ سنة — One Year

☐ أكثر من سنة — More Than One Year

عدد السنوات — # of Years ☐

للأعداد : ..... Issues #

عدد النسخ : ..... # of Copies:

ابتداء من تاريخ : ..... Subscription Date :

☐ شيك — Check

☐ حوالة مصرفية — Bank Draft

☐ حوالة بريدية — Postal Draft

التاريخ : ..... Date :

التوقيع : ..... Signature :

الاشتراك السنوي

داخل الإمارات

للمؤسسات ١٠٠ درهماً

للأفراد ٦٠درهماً

للطلاب ٤٠ درهماً

في الخارج

للمؤسسات ٣٥ دولاراً أمريكياً

للأفراد ٢٠ دولاراً أمريكياً

تودع الإشتراكات في رقم الحساب البنكي للمركز : ٠٤٩٠٩٠٦٥٢٣ بنك المشرق دبي
Payments should be made To Juma al - Majid Center for Culture and Heritage
Acc . # 049090652.3 al - Mashriq Bank - DUBAI

آفاق الثقافة و التراث
Afāq al -Ṭaqāfa
Wa al - Turāṯ

إشعار بالتسلم

Acknowledgment of Receipt

الاسم الكامل ..... Name:

المؤسسة ..... Institution

العنوان ..... Address :

صندوق البريد ..... P.O.Box :

العدد ☐ Issue No

عدد النسخ ☐ No of Copies

اهداء ☐ Gift

تبادل ☐ Exchange

اشتراك ☐ Subscription

التاريخ ..... Date

التوقيع ..... Sig-

ترسل إلى :

مجلة آفاق الثقافة و التراث

ص ب : ٥٥١٥٦ – فاكس : ٦٩٦٩٥٠ (٠٤) – دبي – الإمارات العربية المتحدة

Afāq al -Ṯaqāfa Wa al -Turāṯ

P.O.Box : 55156 - Fax : (04) 696950 DUBAI - U.A.E

Stamp
الطابع
البريدي

الاسم : ..... Name:

العنوان : ..... Address :

البـــلد : ..... Country :

ص ب : ..... P.O .Box : هاتف : ..... Phone :

فاكس : ..... Fax :

التقديم والتأخير، فأذن لهم في التقديم لتظهر معجزته أيضا بغلبهم: لأنّه لو ألقى أوّلاً لم يكن له غلب وظهور عليهم؛ فلهذا المعنى أمرهم بالإلقاء أوّلاً(٦٢).

في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾، وفي سورة طه: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾، وهو أدلّ على رغبته عليه السّلام في سبقهم للإلقاء. ولعلّه نطق أوّلاً بما فيه الإضراب، فقال: بل ألقوا ما أنتم من دوني، ثمّ أعاد كلمة ألقوا وحدها لتأكيد رغبته، والإيذان بعدم مبالاته. وفي سورتي يونس والشعراء: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ﴾(٦٣)، فأظهر اسم موسى الذي أضمره هنا، وفي سورة طه؛ لأنّه جواب لخطابهم إيّاه باسمه بالتخيير، فالمقام فيها مقام الإضمار حتمًا. وأما إظهاره في سورتي يونس والشعراء فسببه أنّه ليس فيهما ذكرٌ لنداءِ السحرة إيّاه وتخييرهم له. فأول آية يونس: ﴿فَلَمَّا جاء السَّحَرَةُ قالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا﴾(٦٤)، وقبلها طلب فرعون للسّحرة، فلو لم يصرّح باسم موسى لكان المتبادر أنّ الذي أمرهم بالإلقاء هو فرعون حسب قاعدة (عود الضمير إلى أقرب مذكور)، وكذلك آية الشعراء جاءت بعد ذكر طلب فرعون للسّحرة ومجيئهم وسؤالهم إيّاه الأجر إن كانوا هم الغالبين، وإجابته إيّاهم، فهي أولى مِنْ آية يونس بما ذكر. وأمّا زيادة ﴿مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ فإنّها فائدة نافلة ذات شأن، تدل على عدم مبالاته بما يلقون مهما عظم أمره وكان مجهولاً عنده. وهي لا تنافي عدم ذكرها في آية الأعراف، فيجمع بينهما(٦٥).

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السّلام في قولهم هذا، فقال لهم عليه السّلام: ألقوا أنتم أوّلاً، قيل الحكمة في هذا، والله أعلم، أن يرى الناس صنيعهم ويتأمّلوه، فإذا فرغوا من بهرجتهم ومحالهم جاء الحقّ الواضح الجليّ بعد التطلّب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس وكذا كان.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾، أي: خيّلوا إلى الأبصار أنّ ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلاّ صنعة وخيالاً كما قال الله تعالى: ﴿فإذا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى. قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا، إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ، وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾(٦٦).

قال محمد بن إسحق : «صف خمسة عشر ألف ساحر مع كلّ ساحر حباله وعصيّه، وخرج موسى عليه السلام معه أخوه يَتَّكِىء على عصاه، حتّى أتى الجمع، وفرعون في مجلسه مع أشراف أهل مملكته، ثم قال السحرة: ﴿يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى. قَالَ: بَلْ أَلْقُوا فإذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ..﴾(٦٧)، فكان أوّل ما اختطفوا

بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثمّ أبصار الناس، بعد ذلك ألقى كلّ رجلٍ منهم ما في يده من الحبال والعصيّ، فإذا حيّات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضًا(٦٨).

وقد ذكر بعض المفسرين سرّ صناعتهم في ذلك بما أراه استنباطًا علميًّا لا نقلاً تاريخيًا.

قال الجصّاص في أحكام القرآن: قال الله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاس﴾ يعني: موّهوا عليهم حتى ظنّوا أنّ حبالهم وعصيّهم تسعَى، وقال: يخيّل إليه من سحرهم أنّها تسعَى، فأخبر أنّ ما ظنّوه سعيًا منها لم يكن سعيًا، وإنّما كان تخيّلاً.

وقد قيل إنّها كانت عصيًّا مجوفة قد ملئت زئبقًا، وكذلك الحبال كانت معمولة من أدم (أي جلد) محشوّة زئبقًا، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابًا وجعلوا أزواجًا ملؤوها نارًا، فلمّا طرحت عليه وحِميَ الزّئبق حرّكها؛ لأنّ من شأن الزئبق إذا أصابته النّار أن يطير، فأخبر الله أنّ ذلك كان مموّهًا على غير حقيقته، والعرب تقول لضرب من الحلي مسحورًا، أي مموّهًا على من رآه مسحورًا به. انتهى.

فعلى هذا يكون سحرهم لأعين النّاس عبارةٌ عن هذه الحيلة الصناعية إذا صحّ خبرها، ويحتمل أن يكون بحيلة أخرى، كإطلاق أبخرة أثّرت في الأعين، فجعلتها تبصر ذلك، أو بجعل العصيّ والحبال على صورة الحيّات وتحريكها بمحرّكات خفيّة سريعة، لا تدركها أبصار النّاظرين، وكانت هذه الأعمال من الصناعات وتسمّى السّيمياء(٦٩).

«وَاسْتَرْهَبُوهُمْ»، بمعنى فرّقوهم، أي من الفرق(٧٠)، أو فزّعوهم(٧١) بمعنى أوقعوا في قلوبهم الرّهب والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى»(٧٢). وأصل الاسترهاب محاولة الإرهاب وطلب وقوعه بأسبابه(٧٣)، والمراد: أنّهم أرهبوا إرهابًا شديدًا، كأنّهم استدعوا رهبتهم(٧٤)، بالحيلة(٧٥)، أو أدخلوا الرّهبة في قلوبهم إدخالاً شديدًا(٧٦).

أمّا قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾(٧٧)، معناه بأن مظهره كبير، وتأثيره في أعين الناس عظيم(٧٨).

قال صلى الله عليه وسلّم: «إنّ من البيان لسحرا»(٧٩)، قيل: معناه من البيان ما يكتسب به من الإثم ما يكتسبه السّاحر بسحره، فيكون في معرض الذّم. ويجوز أن يكون في معرض المدح، لأنه يستمال به القلوب ويرضى به السّاخط، ويستنزل به الصّعب. والسّحر في كلامهم: صرف الشيء عن وجهه.

ويقال السّحر على معانٍ :

الأول : الخداع، وتخييلات لا حقيقة لها،

نحو ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عمّا يفعله بخفّة يد، وما يفعله النّمّام بقول مزخرف عائق للاستماع؛ وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾(٨٠)، وقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾(٨١). وبهذا النظر سمّوا موسى صلوات الله عليه ساحرًا، فقالوا: ﴿يَأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾(٨٢).

الثاني : استجلاب معاونة الشّيطان بضرب من التّقرّب إليه، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾(٨٣)، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُون النَّاسَ السِّحْرَ﴾(٨٤).

قال الشاعر أبو عطاء السندي:

فو الله ما أدري وإنّي لصادق
أداء عراني من جنابك أم سحر
فإن كان سحرًا فاعذريني على الهوى
وإن كان داء غيره فلك العذر

الثالث : ما يذهب إليه الأغتام (الذين لا يفصحون شيئًا)، وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوّته يغيّر الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حمارًا. ولا حقيقة لذلك عند المُخْلَصين.

وقد تصوّر من السّحر تارة حسنة، فقيل: إنّ من البيان لسحرًا، وتارة دقّة فعله، حتى قال الأطباء: الطبيعة ساحرة. وسمّوا الغذاء سحرًا من حيث إنّه يدقّ ويلطف تأثيره. قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُون﴾(٨٥)، أي مصروفون عن معرفتنا بالسّحر، وذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾(٨٦)، قيل: ممّن جعل له سحر، تنبيهًا على أنّه يحتاج إلى الغذاء كقوله: ﴿مَالِ هَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾(٨٧)، ونبّه أنّه كان بشرًا، وقيل: معناه ممّن جعل له سحر يتوصل بلطفه ودقّته إلى ما يأتي به ويدّعيه. وعلى الوجهين حمل قوله: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا﴾(٨٨).

ويقال : إنّ السّحر في القرآن ورد على وجوه:

الأول : بمعنى العلم، والسّاحر بمعنى العالم الحاذق: ﴿يَأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ...﴾(٨٩)، أي يا أيّها العالم.

الثاني : بمعنى الزّور والكذب: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾(٩٠)، أي كذب وزور. ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ﴾(٩١)، أي كذب قويّ تام.

الثالث : بمعنى ربط العيون: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾(٩٢).

الرابع : بمعنى الجنون، والمسحور المجنون: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا﴾(٩٣)، أي مجنونًا.

الخامس : بمعنى الصرف عن الحق: ﴿قُلَ فَأَنَّى تُسْحَرُون﴾(٩٤)، أي تصرفون(٩٥).

وخلاصة القصة في هذه الآية الكريمة: أنّه لمّا أعضل موسى وأخوه بفرعون، ولم يجد

السبيل إلى إقرارهما بأنّه الإله الحق، رجا أن يعجز عن الإتيان بآية تبيّن صدقهما فيما جاءا به عن إلههما. فطلب آية من موسى فألقَى عصاه من يده، فإذا هي ثعبان لا شك فيه يتحرّك ويسعى، ووضع يده في جيبه، ثمّ نزعها، فإذا هي بيضاء للنّاظرين. رأى فرعون والملأ من قومه ذلك، فعمدوا إلى التمادي في تكذيب موسى فيما جاء به من الآيتين، وأحالوا ذلك منه على السَحر، وتشاوروا فيما بينهم في شأن موسى مؤكّدين أنّه ساحر عليم، يريد أن يخرجهم من أرضهم. فأدّت بهم خاتمة المطاف إلى أن أشاروا على فرعون أن يرجيء موسى وأخاه حتى يأتي بالسَحرة من آفاق مصر؛ ليأتوا بمثل ما يأتي به موسى؛ لأنّ هذه الآية التي أتى بها كان في مقدور غيره أن يأتي بمثلها، فقد بطلت دعواه إذ الغرض أن يأتي بشيء لا يقدر غيره على الإتيان بمثله، وإلاّ فإنه لا يسمّى معجزة تدل على صدقه فيما يبلّغ عن ربّه.

أرسل فرعون في مدائن مصر حاشرين يأتونه بالسَحرة، وكان للسحر منزلة عظيمة في أرض مصر به الملوك والأمراء يهتمون ويكافئون عليه. وهذا أمر لم يزل كشف الآثار المصرية يبين عنه إلى اليوم، فجاءوا بجمهور عظيم من السَحرة كانوا مدلين بأنفسهم، واثقين من مقدرتهم على السَحر والتَصرّف في الأعيان والعيون، وعرضوا لفرعون بالأجر ينالونه جزاء قيامهم بالسَحر. فوعدهم الأجر الجزيل، والزلفى لديه، وأيّ زلفى أعظم من زلفى قوم يؤيّدون ربوبيّته ويثبتون عرش (ألوهيّته)، وطلب السحرة الأجر يدلّ على أنّ أمور الفراعنة كانت سخرة.

رَاوَدَ السّحرة موسى عليه السّلام، هل يلقون سحرهم أو يلقي هو سحره أوّلاً؟ وكان الجمع حافلاً، وفي يوم الزينة، ويظنّ أنّه يوم وفاء النّيل، فإنّه كان أعظم أعيادهم. فقال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون. وكان عتادهم العصيّ والحبال، فألقوها فامتلأ المكان حيّات وثعابين، وخيّل إلى موسى من سحرهم أنّها تسعى.

في تلك اللحظة ابتهج فرعون وجنوده وعليّة قومه، وأيقنوا أنّ السَحرة قد نجحوا، وأنّ موسى لا يمكنه أن يأتي بشيء أعظم من سحرهم؛ إذ كلّ ما في يده عصاه، فإذا قلبت حيّة فهي حيّة واحدة من مئات وآلاف قد غصّ بها رحب السّاحة التي هم فيها.

وفي تلك اللحظة أيضًا هال موسى أمر تلك الحيّات، وأوجس في نفسه خيفة، فأمره الله أن يلقي عصاه، فإذا هي حيّة تسعى، وإذا هي تبتلع حيّات السَحرة وتتلقفها. فوقع الحق وبطل سحر السحرة. ودهش آل فرعون والملأ من قومه. وعلم السَحرة أن السَحر لا يفعل مثل ذلك. وإنّما هي القوّة الإلهية صنعت هذا، فخرّوا ساجدين لله تعالى، وآمنوا بربّ موسى

وهارون، مفضلين ذلك على الأجر الذي كانوا يرجونه من فرعون، مستهينين بجزائه الذي سيوقعه بهم.

علم فرعون أنه لم يعجز موسى، ولكن موسى أعجزه، فأراد أن يستر عواره، فقال للسّحرة عن موسى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾(٩٦)، ولهذا كان أقوى منكم، وغلب سحره سحركم. قال هذا مع علمه بأنّ موسى لا يعرفهم، ولم يجتمع معهم من قبل، بل كان ثاويًا في أهل مدين، ولم يتصل بالسّحرة بأيّة صلة. ولكنه المقهور المغلوب، يلتمس لنفسه العذر، وإن كان لا يغني، (ولا بدّ للمغلوب من بادر العذر).

ثمّ أخذ يتجنّى على أولئك السّحرة ويقول لهم: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾(٩٧)، موهمًا أنّه يتصرّف في وجدانهم، وأنه كان على وشك أن يأذن لهم، ولكنّهم أجرموا بالإيمان قبل صدور الإذن، وهدّدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والتصليب على جذوع النخل، فلم يثنهم ذلك عن الإيمان. وقد نفّذ فيهم ما هدّدهم به. ولقد همّ فرعون أن يقتل موسى خوفًا من أن يبدّل دين المصريين، أو أن يظهر في أرض مصر الفساد، كلّ هذا ليثنيه عن دعوته إلى الله، فلم يفلح ولم يقلع، وكلّما فتح بابًا للتجنّي عليه وعلى أخيه حوّل مجرى الجدال إلى شيء آخر فيه فرج(٩٨).

الحواشي

١ – الحشر : ١٣

٢ – القصص : ٣٢

٣ – الأنبياء : ٩٠

٤ – الأنفال : ٦٠

٥ – الأعراف : ١١٦

٦ – البقرة : ٤٠

٧ – المفردات في غريب القرآن، ص٢٠٤.

٨ – أساس البلاغة : رهب.

٩ – انظر: لسان العرب: رهب، والقاموس المحيط: رهب.

١٠ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٢/ ٥٧٦ – ٥٧٩.

١١ – بصائر ذوي التمييز: ٢/ ٥٤٤ – ٥٤٦، ومفتاح السعادة ومصباح السيادة: ٢/ ٢٨٤.

١٢ – الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ١٢٦/٣.

١٣ – تهذيب اللغة: ٦/ ٢٩٠، والمصباح المنير: ١/ ٢٨٦، وانظر القاموس المحيط: ٧٩/١.

١٤ – جمهرة اللغة : ١/ ٢٧٩ – ٢٨٠، وتهذيب اللغة: ٦/ ٢٩٠، وبصائر ذوي التمييز: ٣/ ٢٢٤.

١٥ – الأعراف : ٣١

١٦ – البقرة : ٤٦

١٧ – جامع البيان في تفسير القرآن: ١/١٩٧.
١٨ – الجواهر الحسان : ١/٥٥.
١٩ – تفسير المنار : ١/ ٢٨٩ – ٢٩٠.
٢٠ – الإسراء : ٣
٢١ – أنوار التنزيل : ٨
٢٢ – تفسير ابن كثير : ١/٨٢، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: ١/٤٤.
٢٣ – لباب التأويل في معاني التنزيل: ١/٤٥.
٢٤ – الجواهر الحسان: ١/٥٥.
٢٥ – بصائر ذوي التمييز: ٣/ ٩ – ١٥.
٢٦ – الحجرات : ١٧
٢٧ – المائدة : ٢٠
٢٨ – جامع البيان في تفسير القرآن: ١/ ١٩٧ – ١٩٨.
٢٩ – الجواهر الحسان : ١/٥٥.
٣٠ – مدارك التنزيل : ١/٤٤.
٣١ – أنوار التنزيل : ٨
٣٢ – انظر: بصائر ذوي التمييز (بصيرة في نِعَم): ٥/٩٠.
٣٣ – تفسير المنار : ٢٩٠ – ٢٩١، تفسير الجلالين: ٩.
٣٤ – انظر: بصائر ذوي التمييز (بصيرة في عهد): ٤/ ١١٤ – ١١٥.
٣٥ – البقرة : ٢٧
٣٦ – البقرة : ٦
٣٧ – البقرة : ٨
٣٨ – الأعراف : ١٧٢
٣٩ – جامع البيان : ١/ ١٤٢ – ١٤٤.
٤٠ – الجواهر الجسان: ١/ ٥٥.
٤١ – أنوار التنزيل : ٨
٤٢ – تفسير المنار : ١/ ٢٩١.
٤٣ – جامع البيان : ١/ ١٩٩.
٤٤ – فاطر : ٢٨
٤٥ – النساء : ٩
٤٦ – الإسراء : ٣١
٤٧ – النساء : ٢٥
٤٨ – المائدة : ٤٤
٤٩ – المؤمنون : ٥٧ – ٦١.
٥٠ – الرسالة القشيرية : ٧٨.
٥١ – بصائر ذوي التمييز (بصيرة في الخشية): ٢/ ٥٤٤ – ٥٤٦.
٥٢ – الرعد : ٢١
٥٣ – مفتاح السعادة: ٢/ ٢٨٤، الكليات: ٢/ ٣٠٢ – ٣٠٣.
٥٤ – جامع البيان: ١/ ١٩٨.
٥٥ – تفسير ابن كثير: ١/ ٨٣.
٥٦ – أنوار التنزيل : ٨
٥٧ – الأعراف : ١١٥ – ١١٦.
٥٨ – الكليات : ٤/ ٣٠٩.
٥٩ – طه : ٥٨
٦٠ – طه : ٦٥
٦١ – تفسير المنار: ٩/ ٦٤ – ٦٥.
٦٢ – لباب التأويل: ٢/ ١١٩ – ١٢٠.
٦٣ – الشعراء : ٤٣، ويونس : ٨٠

٦٤ – يونس : ٨٠

٦٥ – تفسير المنار: ٩/ ٦٥.

٦٦ – طه : ٦٦ – ٦٩.

٦٧ – طه : ٦٥ – ٦٦.

٦٨ – تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٣٧، مدارك التنزيل: ٢/١٢٠، الكشاف: ٢/١٤٠.

٦٩ – تفسير المنار: ٩/ ٦٦ – ٦٧.

٧٠ – تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٣٧.

٧١ – الجواهر الحسان: ٢/ ٤٣، تنوير المقياس من تفسير ابن عباس: ١٠٦.

٧٢ – طه : ٦٧ – ٦٨.

٧٣ – تفسير المنار: ٩/٦٦.

٧٤ – الكشاف : ٢/ ١٤٠.

٧٥ – لباب التأويل : ٢/١٢٠.

٧٦ – فتح القدير : ٢/ ٢٣٢.

٧٧ – الأعراف : ١١٦

٧٨ – تفسير المنار: ٦٩، وانظر: المنار (فصل في حقيقة السحر وأنواعه): ٩/٤٥ وما بعدها، وتفسير ابن كثير (المسألة الخامسة في أنواع السحر ومعانيه): ١/١٤٤، ومختار تفسير القرطبي: ٦٩ – ٨٥.

٧٩ – رواه أبو داود، كما في الجامع الصغير.

٨٠ – الأعراف : ١١٦

٨١ – طه : ٦٦

٨٢ – الزخرف : ٤٩

٨٣ – الشعراء : ٢٢١ – ٢٢٢.

٨٤ – البقرة : ١٠٢

٨٥ – الحجر : ١٥

٨٦ – الشعراء : ١٥٣، ١٨٥.

٨٧ – الفرقان : ٧

٨٨ – الإسراء : ٤٧، الفرقان : ٨

٨٩ – الزخرف : ٤٩

٩٠ – الأعراف : ١١٦

٩١ – القمر : ٢

٩٢ – الأعراف : ١١٦

٩٣ – الإسراء : ٤٧، الفرقان : ٨

٩٤ – المؤمنون : ٨٩

٩٥ – بصائر ذوي التمييز: ٣/ ١٩٧ – ٢٠٠.

٩٦ – طه : ٧٠، الشعراء : ٤٩

٩٧ – الشعراء : ٤٩

٩٨ – قصص الأنبياء: ١٨٧ – ١٨٨.